لا يدرس في كتب كلود برنار ولا في كتب باستور بل لا بدَّ من درسهِ مثلاً. وطرق الوقاية من الامراض وتشخيصها والانذار فيها وعلاجها لا تعلم في الكتب ولا بدَّ لها من شيء آخر وهو مراقبة المرض المراقبة الطويلة بالصبر والتأني المراقبة التي اعتمد عليها الاطباء من ايام بقراط وبغيرها لا يفلح احد في صناعة الطب . وعلى طلبة علم الطب ان يسترشدوا بالاطباء المجرّبين في فحص المرضى وتشخيص امراضهم . وما من احد في رأسهِ مسكة من العقل وهو يشير على مدارس الطب بابدال المستشفيات بالمعامل الكيماوية

ولكن المعامل الكيماوية لازمة و بدونها لا يتقدَّم علم الطب لاننا لم نزل نحتاجين الى تقدُّم كثير . أوليس وجود السل والسرطان عارًا على علم الطب . اليكم اوجه الكلام ايها الاطباء ألا يخجل كلٌّ منكم حينما يشاهد المرضى بهذين المرضين الخبيثين يتحدرون الى القبر تحت اشد الآلام وهو عاجز عن شفائهم

والشعور بهذا العجز يجب ان يدفعنا إلى العمل . والعمل عظيم ولا يحقُّ لاحدٍ منّا ان يظهر الضعف والملل . وعلينا نحن معاشر الفسيولوجيين ان ننشط عن الحقائق الجديدة ونكرر البحث والتفتيش ولا نخشى الفشل ولا نقنع حدًّا للجرأة والجسارة ولتكن ضالتنا التي نشدها اكتشاف الحقائق العلميَّة سواء افادت في علم العلاج او لم تفد . اما انتم ايها الاطباء فعليكم ان تتبعوا نتائج المكتشفات البيولوجيَّة لكي تجدوا لها فائدة في علم العلاج . والنجاح رهين هذا الاشتراك بين العلماء والاطباء ولكن لا بدَّ من محرّك يحرك رجال العلم والاطباء وهو الثقة بالعلم والحب للناس

السسيولوجيا اي علم الاجتماع الانساني

ملخصة من كتب الفيلسوف هربرت سپنسر بقلم نسيم افندي برباري

(تابع ما قبلهُ)

من الاسباب التي تُضِلُّ الانسان في حكمهِ على المسائل الاجتماعيَّة اغراضهُ السياسية والدينية والوطنية . والاولى منها عامة وتأثيرها عظيم ولا سيما حيث تكون الاحزاب السياسية مختلفة متباينة كما في فرنسا وانكلترا فان اغراض هذه الاحزاب تشتدُّ حتى يرى كلٌّ منها الامور على ضد ما يراهُ الآخر فيستحسن الحزب الواحد عمل الحكومة وينادي بنفعهِ ولستقبحهُ

الحزب الآخر وينادي بضرره . وامثلة ذلك كثيرة مألوفة (١)

ولا ينحصر تأثير هذه الاغراض في الحكم على المسائل الحاضرة بل يمتد غشاوة على عيون اصحابها عند حكمهم على الماضي ايضاً . فلو كتب جمهوريو تاريخ رومية لغالى بمدح جمهوريتها وبرهن على ان انحلال السلطنة الرومانية بدأ حين قامت الامبراطورية . ولو كتب تاريخها احد الملكيين لذهب الى ضد ذلك

والاغراض السياسية مبنية على اساس رسخ في عقل الانسان منذ آلاف من السنين وهو الخوف من اهل السيادة واستعظام شأنهم حتى صار ينسب اليهم العصمة والقدرة على كل شيء . وكثيرٌ من المزاعم التابعة للاغراض السياسية مصدرهُ اعتقاد فاسد يظهر بادئ بدء انهُ من البديهيات واذا نظر اليهِ الانسان بعين الناقد البصير رأى في اختباره اليومي ادلة كثيرة على عدم صحتهِ . وهذا الاعتقاد هو ان بين الوسائط والنتائج نسبة مقررة فاذا اكثر الناس من استعمال الوسائط الحسنة كثرت النتائج الحسنة . وبطلان ذلك ظاهر حتى في ابسط اعمالنا البيتية فالذي يعتقد انهُ اذا ضاعف عدد خدمهِ تضاعفت الخدمات التي يؤدونها يجد بعد الاختبار ان الخدم القليلي العدد تكون اعمالهم اكثر وافضل من اعمال الخدم الكثيرين . وقد يظن الانسان ان ذوي المعارف الواسعة هم الذين توفرت لديهم الكتب ووسائط التحصيل والحقيقة ان اكثر العلماء كانوا فقراء فاضطروا ان ينسخوا الكتب التي درسوها او ان يستعيروها من غيرهم ولم يكن العلم ميسوراً لهم فكانوا يعملون النهار بطوله لتحصيل القوت الضروري ويحيون الليالي بالدرس والمطالعة

وهذا الزعم المتقدم وما في الانسان من الوجهة من اهل السيادة يحملانهِ على السعي في تكثير القوانين ظناً منهُ بان كثرتها تحسن حال الشعب اذ تصبح اعمالهُ كلها مربوطة بالروابط ومقيدة بالقوانين والواقع على ضد ذلك فان القوانين قلما تزيل الخطاء الذي سنَّت لازالتهِ بل قد تكون سبباً في زيادتهِ عدا عن انها تنتج مضاراً اخرى لم تخطر على فكر واضعها . ولبيان ذلك نضرب مثلاً ماديًّا : اذا اراد احدٌ ان يزيل تحدُّباً قليلاً من لوح حديدي بالطرق على الجزء المتحدب فثل في عمله واحدث تحدُّباً آخر في جهة أخرى من اللوح . واذا استشرت الحدَّاد في ذلك اخبرك انهُ لا سبيل لازالة التحدُّب الاَّ بالطرق على اماكن اخرى من اللوح

(١) نرى الآن الفرنسويين الذين من حزب الحكومة يحتفلون برجوع رئيس جمهوريتهم من روسيا بعد عقد المحالفة النافعة وزعماء الحزب الآخر يهكمون على القيصر والرئيس و ينكرون وجود المحالفة ويتهمون وزراءهم بالخداع

علاقة ظاهرة لها بالمكان المتحدّب . فاذا كنا نجد مثل ذلك في الامور المادية البسيطة
بالحري في المسائل الاجتماعية الكثيرة التعقيد المتعلقة بطبيعة الانسان واخلاقه كما يتضح
ن المثال الآتي

سنّ الانكليز في اواسط القرن الثامن عشر قانوناً يمنع بيع المسكرات بلا رخصة رسمية
جزلوا المكافأة لمن يشيهم باسماء التجار الذين يبيعون المسكر خلسةً . وكان من امر هذا
قانون ان تجارة المسكر زادت اربعة اضعاف في مدة خمسين سنة وذلك نخالف للغرض
قصود من هذا القانون على خطّ مستقيم وتقلت وطأة المخبرين السريين وكثرت اكاذيبهم
ى حدّ لا يطاق حتى امتنع القضاة انفسهم عن سماع شكاويهم وهاج الشعب من جراء
اصابهم من الظلم فقتلوا بعض اولئك المخبرين علناً في الشوارع العمومية وهذه النتيجة لم تخطر
ط على بال اعضاء البارلمنت حينما سنوا ذلك القانون

وذوو الاغراض السياسيّة يعلقون امالهم على ضروب السياسة ويشيرون اليها كل
فضل في اصلاح البلاد بقطع النظر عن القوى الباطنة التي تحركها . وهم مثل الاولاد الذين
ظنون ان الآلة البخارية تسير اجلالها وسامبرها ويجهلون انهُ لولا قوة البخار الخفية لبقيت
لآلة في مكانها ولم تتحرك . فالجمهوريون يعتقدون ان الحكومة الجمهورية افضل انواع الحكومات
ن شعارها الحرية والمساواة والاخاء مع ان الشواهد عديدة على ان الحكومات الجمهورية
كانت مراراً كثيرة اشد ظلماً وعسفاً من الحكومات المطلقة واستعملها اولو المآرب لاضطهاد
عدائهم تحت برقع العدالة والمساواة . وغيرهم يظن ان الحكومة الملكية المقيدة اصلح من كل
لحكومات وهي قد تكون كذلك وقد تكون من افسدها . مهما كان نظام الحكومة فنفعهُ وضررهُ
وقفان على الشعب نفسهِ لانهُ هو القوة التي تسيرها الحكومة . مثال ذلك ان مجلس النواب
كان موجوداً في انكلترا منذ ثمانمئة سنة ولكنهُ كان اولاً آلة بيد الملك والاشراف حتى
تى واناله الشعب الاستقلال والنفوذ اللذين يتمتع بهما الآن

بقي علينا نوع آخر من الاغراض السياسيّة وهو الاعتقاد بان تحسين الاحكام ممكن
شعب ولو لم يكن الارتقاء العقلي شائعاً بين افراده او بعبارة اخرى انهُ يمكن للشعب وهو في
رجة التأخر اديباً وعقلياً ان ينشئ حكومة عادلة لاعيب فيها . ولا حاجة بنا لاطالة الكلام
اظهار فساد هذا الزعم فانهُ لا يمكن لشعب جاهل ان ينتخب حاكماً حكيماً ولا ان يشتهر الملوك
ذين ينشأون في البلدان المتوحشة بالحلم والعلم . وما تقدم يصدق على البلاد الجمهورية ايضاً
الذي يقرأ الخطب التي يلقيها المرشحون للمجالس الشورية على منتخبيهم ويتدبر ما فيها من

الاماني الفاسدة يجب كيف ان المنتخبين ينتخبون مثل اولئك الناس ويتركون بقية المرشحين الذين يصدعون بالحق . ولو بحث قليلاً لوجد ان جمهور المنتخبين في درجة متأخرة من العلم والعقل فلا تروج عندهم الاَّ بضاعة الكذب فلذلك لا ينتخبون للنيابة عنهم الاَّ الذين يسكرونهم بالمواعيد الفارغة ومتى دخل هؤلاء مجالس النواب ساءت احوال البلاد وشقيت

والاغراض الدينية من اشد الاغراض تأثيرًا في النفس (ان لم نقل انها اشد الاغراض تأثيرًا وخصوصاً في الشرق) ولها الشأن الاعظم في احوال الناس فكلٌّ منا يحسب جاره الذي يدين بغير دينه حطبًا لنيران جهنم فيسيء الظن به ويحتقره لغير داعٍ . وبديهي ان من يعتقد ذلك في قريبه لا يمكنه ان يحكم على اعماله حكمًا عادلاً منزهًا . ومعلوم ان لكل دين نظامًا ادبيًّا خاصًّا به بنسبة اصحاب ذلك الدين الى وحي رباني ويتخذونه دستورًا لاعمالهم ويقيسون اعمال غيرهم به . وهناك قياس آخر غير هذا القياس نقاس به اعمال الغير وهو موافقتها لسعادة الانسان . والقياس الثاني معادلٌ للاول وسجلٌّ محلهُ كلما تقدم التمدن . وبحسب القياس الاول يُحكَم على الاعمال انها خطاء من حيث مخالفتها للامر الالهي لا من حيث ماهيتها وما يمكن ان ينتج عنها من الضرر للغير . واوضح مثال لذلك شخص يعرفهُ المؤلف وهو شيخ قد جمع دين الحب ودين البغض في صدره . فكان يذهب باكرًا إلى مكان العبادة ويقيم فروضهُ الدينية بخشوع وتقوى ثم يرجع الى بيته ولا يقر لهُ قرار الاَّ بقراءة اخبار الحروب والمعارك والتغزل باعمال الابطال وانتصاراتهم . وكان تارةً يلوم غلادستون على فصله كنيسة ايرلاندا عن الحكومة ويعدُّ عملهُ احتقارًا للديانة ثم ينقلب الحديث بغتة فيطرب سامعيه بوصف بعض المعارك العظيمة او وصف صورة الملك رتشرد قلب الاسد يحارب السلطان صلاح الدين او وصف رابتون في معركة واترلو وها من الصور الشهيرة التي كان مغرمًا بها . ومن تأمل احوال هذا الرجل العقلية وجد انهُ يتصور الله عزَّ وجلَّ قائدًا من قواد الحرب فيذهب الى الكنيسة كذهاب الجندي الى الطابور ويسير في طريق الاستقامة طاعة لاوامر هذا القائد لا لان الاستقامة واجبة لذاتها . ولا خلاف ان مثل هذا التصور يعمي البصائر في الحكم على المسائل الاجتماعية ومن نتائجهِ انهُ يحمل الانسان على ترك الجوهر والتمسك بالعرض فيتعلق باذيال العقائد والظواهر ويغفل عن غرض الديانة وما تأمرهُ به نحو الغير

والاغراض الدينية تعمي بصيرة تابع الملة الواحدة عن رؤية حسنات الملة الاخرى رغمًا عما يراهُ يوميًّا من وجود كثير من الافاضل بين اتباع تلك الملة وما يشعر بهِ احيانًا من انهُ لم يتبع الملة التي هو فيها الاَّ لان اباهُ اتبعها من قبلهِ وان هذا شأن اتباع باقي الملل وهم

تخرون بالهم كما يفتخر بملوكهم و ينسبون اليها العصمة والكمال كما ينسب إلى ملوكهم. وايضاً ان لكل
لة مزية وفضلاً حتى ما يحسب منها خرافيًا سخيفاً ولا بدَّ ان كلاً منها كان ذا فائدة عظيمة
ب زمانهِ

وهناك نوع ثانٍ من الاغراض الدينيَّة ناتج من اطراح الديانات كلها. فاذا تحرر الانسان
ن دياناتهِ تطرَّف في مقاومتها، يحكى ان احد ملوك بابل بيلاد الهند قتلت امرأتهُ نفسها لان
لجدري شوَّه وجهها فلعن مملكتهُ وآلهتهُ واطباءهُ واقسم ان ينتقم منهم. ثم جلد الاطباء وجمع
دافعهُ امام هيل الالهة وامر المدفعيَّة باطلاق النار فاطاعوا فقتل كثيرين منهم ثم اطلق
ياتون النار ودام اطلاقها ست ساعات حتى لم يبقَ من تماثيل الآلهة ذرة . وامثلة ذلك
كثيرة في التاريخ فالفرنسويون هدموا المعابد وقت الثورة ومزقوا كتب الصلوات وشربوا
لسكر بآنية الكنائس . وقد قلَّت هذه الاعمال كثيرًا في هذه الايام ولكن لا يزال في
عقل الانسان ميل لاحتقار كل ما يكون قد تركهُ واستبدال حبهِ لهُ بالكره الشديد . وهذا
لميل يدوم في البعض طويلاً ولكن يعقبهُ في المعتدلين انفعال آخر . وقد مثَّل الفيلسوف
كارليل على ذلك بانهُ اذا ضاقت ثياب الانسان عليهِ طرحها جانبًا باحتقار ثم يعترف بعد
قروي انها كانت مفيدة لهُ جدًّا في وقتها وربما تأسف لانهُ خلعها قبل اوانها . ولا يمكن
لنظر في المسائل الدينيَّة او الاجتماعيَّة بالعدل والانصاف ما لم يحدث هذا الانفعال الثاني في
لنفس اذ يزول منها الغرض الذي اعاها اولاً

ولننظر الآن الى تأثير هذا الانفعال في المسائل الاجتماعية . فقد اعتقد كثيرون انهُ يسهل
تأليف قانون ادبي مبني على القواعد المعروفة الآن وحمل الناس على العمل بموجباتهم ان عقل جمهور
لناس قاصر عن ادراك المسائل الصغيرة فكم بالحري عن ادراك المسائل الادبيَّة. وما نراهُ من
عدم اعتناء الناس في اعمال الحياة العادية دليل واضح على احتياجهم إلى القوى العقلية اللازمة
لتقويم سلوكهم . ومن تأمل في اعمالهم اليومية رأى ذلك جليًا بطريقة لا تقبل الارتياب .
اذا اردت ان تتناول جرعة من الدواء رأيت نقطهُ تنصبُّ على جانب الزجاجة لانهُ لم يصنع لها
ميزاب خاص تنصبُّ منهُ بسهولة . واذا اردت ان تضع قطعة من اللحم في النار وجدت
صعوبة في ذلك لان راس الملقط صقيل لا يمسك شيئًا بسهولة . واذا جلست على كرسي
سعرت بالم في ظهرك لان صانعي الكراسي لم يدركوا وجوب عملها على طريقة يتفرق بها ثقل
لجسم على سطح كبير عوضًا عن حصرهِ في نقطة واحدة. وامثال ذلك لا تعد. ومعامل الزجاج
والملاقط والكراسي تصنع ملايين منها كل سنة ومع ذلك لم ينتبه اصحابها لاصلاح هذا الخلل

دفعةً واحدة وما أُصلح منهُ كان اصلاحهُ تدريجاً بحسب تقدمهم في الاختبار والى الآن لم يصل الى الدرجة المطلوبة . ويظهر للمتأمل ان جمهور الناس قد اعتمد ان يقضي حياتهُ في هذه الدنيا بدون إعمال الفكرة كثيراً في تدبير الطرق اللازمة لاصلاح الاحوال فلا يتيسر للناس ان يستوا فانوناً ادبياً عقلياً للسلوك اذا أُبطلت القوانين الموضوعة ما لم يرتقِ العقل كثيراً حتى يدرك ماهيَّة الاشياء ويحكم بنفعها او ضررها من حيث هي . فالذين يعترضون على العاب القمار يبنون اعتراضهم على كونها تؤول الى تماسة اللاعب وتعاسة عائلتهِ بابعادهِ عن اعمالهِ واضطرارهِ الى معاشرة الاشرار . هذه هي اعتراضاتهم على لعب القمار وحقيقة الامر ان ما يخسرهُ الفريق الواحد يكسبهُ الفريق الآخر والقانون الطبيعي يفرض على الانسان ان يكتسب من غيرهِ مقابل اعمالٍ يعملها لنفعهِ . اما من يربح من لعب القمار فلا يعمل عملاً يستحق المال الذي يأخذهُ فربحهُ خسارة على بقيَّة اللاعبين لم يأخذوا عوضاً عنها فان لم يبنَ المنع على هذا السبب المعقول فلا تنقاد اليهِ النفوس

وفائدة القواعد الدينيَّة انها جمعت اختبار البشر مدة الوف من السنين وافرغتهُ في قالب قريب من الحقيقة . وقد سار الناس مدة وجودهم على هذه البسيطة في جميع المسالك المعوجة قبلما اهتدوا الى الطريق المستقيم ولذلك يكون لاختبارهم هذا شأن عظيم . ثم انهُ لما كان الانسان خاضعاً لانفعالاتهِ النفسانيَّة اكثر من خضوعهِ لعقلهِ كان لا بدَّ من ايجاد طريقة تؤثر في شعورهِ حتى يمكن حفظهُ في السبل القويمة . فالعقائد الدينيَّة تملك من الانسان مهما كانت عرضة للانتقاد اكثر مما تملك منهُ سائر المعتقدات ولو قام عليها الف دليل . ومهما ارتقى الانسان يبقى تأثير انفعالاتهِ اقوى من تأثير عقلهِ

واعظم ضرر تنتجهُ اغراض المضادين للدين قضاؤهم على كل الاديان بجريرة ما في بعضها من الخرافات فاذا وجدوا في احد الاديان معتقداً غير معقول رفضوا الدين كلهُ بسببهِ واذا تدبرنا الامر وجدنا ان ما لا يعقل من المعتقدات ظاهري فقط وانها اشبه بلباس للحقائق الدينية الثابتة . نعم ان مذهب الارتقاء قد رقَّى معتقدات الناس من جهة الخليقة والكون وسيرقيها اكثر من ذلك في المستقبل وكلما ارتقت عقول الناس نقدت الاديان صورها الخارجية لكن الشعور الديني يبقى على حالهِ . ويخطئ الذين يزعمون ان القوانين الادبية تحل محل الاديان . ومهما تعززت القوانين الادبية يبقى الشعور الديني على حالهِ لانهُ ينظر الى ما وراء الطبيعة الى القوة التي صدر منها نوع الانسان — تلك القوة التي كانت قبل ان وجد مخلوق على وجه البسيطة وستبقى بعد انقراض النوع كلهِ